

القلاع في الحروب الصليبية

دكتور عبد الرحمن زكي

مقدمة

تأثرت الحصون والقلاع في الشام بشكل يدعو إلى الدهشة ، منذ أيام الحروب الصليبية وما قبلها ، بين جزيرة « الجرية » (١) في شمال خليج العقبة (بين مرفأى طابة والعقبة) وسلسلة جبال أمانوس في شمال سورية . ومع أن بعض تلك الحصون قد شيد على بقايا قلاع الرومان والبيزنطيين والعرب قبل الغزو الصليبي بثلاث السنين ، فإن ما بنى منها في أثناء الحروب الطويلة في جميع المسلمين والفرنج زاد على ما عرفته تلك البقاع من قبل ، سواء في ضخامة العدد أو من ناحية الطراز المعماري .

شيد المسلمون والصليبيون عشرات القلاع ، فهم لم يتركوا مضيقاً أو سفح جبل يشرف على واد أو نهر دون أن يبنوا قلعة ، تشرف على هذا أو ذاك . ولم يتركوا مدينة دون أن يشيدوا في خارجها أو على الجبل الذي يشرف عليها حصناً منيعاً . لقد هيدوا كثيراً كما فعل الرومان من قبل فأحاطوا المدن بالأسوار والأبراج للنيعة ، وكثرت المعارك التي نشبت حولها أو في داخلها ، وكمن المرات تبودلت بين الحصنين . وما تلك الحصون إلا شهود حق على النضال البرير الذي ساد أرض العرب أجيالاً طويلة .

بالقرب من منابع الأنهار : الأردن واللبان والأورنت ، قاومت القلاع مهاجميها أو من حاولوا الاقتراب منها . كم من الأبراج الكبيرة أو الصغيرة التي شيدت في السهول لأغراض المراقبة والحراسة ! كم من الكهوف التي تقورت في صخور الجبال قاومت بنف كل من حدثته نفسه بالإستيلاء عليها ! كما حدث في حبيس جلدق (٢) وتيرون النها (٣) . لقد أفاد المهاجم والمدافع من طبيعة البلاد وتضاريسها ،

(١) هي الجزيرة المعروفة في كتابات مؤرخي الحروب الصليبية باسم Ile de Graye (أو جزيرة فرعون) وتقع في شمال خليج العقبة وتحتوي اليوم على أطلال حصن قديم .

(٢) تكتب أحياناً حبيس جلدق وهي القلعة الصليبية التي تعرف باسم بلقوار Belvoir أو شقيب أرنول وتقع بالقرب من انياس .

(٣) يقع حصن تيرون إلى شمال قلعة الشقيف على بعد بضعة أميال ، وتعرف اليوم بقلعة نحا .

ولم يترك الصليبيون موطناً قدم على الساحل الفيضي القديم دون أن يختاروا بقعة تصلح لإقامة حصن أو برج للمراقبة والمقاومة . . حتى الجزر الصغيرة شيدوا عليها الحصون كما فعلوا في إنفه (Infeh) جنوبي طرابلس على الشاطئ . وقد عاونتهم طبيعة الأرض على تنفيذ ما أرادوه .

كانت حماسة الصليبيين الدينية وآمالهم الطامحة في امتلاك البلاد المقدسة ، الحافز الأول لهم في بناء عدد يذكر من القلاع . . تلك التي مازالت إلى اليوم محطة لدراسة رجال الآثار ، وكان أكثرها نماذج رائعة لأساليب العمارة الحربية التي اتسم بها ذلك العصر ، أي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

اتخذت بعض تلك القلاع ، طراز البناء الشرقية . . . شيد بعضها في عصور الرومان ، وبعضها في أيام البيزنطيين أو العرب ، وبعضها من طراز العرب ، ولا سيما الطراز الفرنسي .

لقد غصت سورية وفلسطين وشرق نهر الأردن ، في الصحراء الجرداء بعشرات القلاع ، التي اتسمت كلها بروح الإبتكار والإنسجام مع شكل أرض البلاد . ولقد استطاع المحاربون أن يؤلفوا من الحجارة تاريخاً للعمارة الحربية في القرون الوسطى ، وتاريخاً حريياً أيضاً ! فهناك على ربوة تطل على عيون أدونيس ، شيدوا حصن النيطرة (Le Moineestre) ^(١) على إرتفاع ستة آلاف قدم . ولذلك يعلو قممها الثلج معظم أشهر السنة . تنهض في جلال لترقب ممرآ في وادي البقاع . وهي في موقع عزيز المنال يصعب اقتحام جدرانها .

وهناك في طرطوسة على الساحل شيد الصليبيون في داخل قلعتها كاتدرائية في الأسلوب البرجندى . وإلى وراء اللاذقية نحو الداخل في بقعة وعرة جداً ، عند قلعة صهيون تقروا ١٧٠٠٠ من أطنان الحجر الأصم ، ليزيدوا مناعة القلعة التي أقاموها على قمة الجبل . كما أنهم قد أنشأوا في قلعة المرقب مخازن فسيحة تسع عتاد ألف رجل يقاسون ظروف الحصار العنيف الذي امتد حوالى خمس سنوات .

(١) أعاد الصليبيون بناءها بالقرب من أفقا وقد شيدت لحراسة الممر الجبلى الذى يربط بين جبيل وبعبك ، كانت حصناً عربياً غير أن طغمتين تنازل عنه للفرنجية عام ١١٠٩ .

إنك إذا قمت بجولة لزيارة تلك الحصون التاريخية من شمال سورية إلى أقصى النقب جنوباً ، ومن الشرق عند الفرات إلى ساحل البحر الأبيض لأدركت في الحال ذلك الدور الهام الذى قامت به تلك القلاع ، في تلك البقعة بأسرها على مدى التاريخ والتي نشبت على أرضها أعنف المعارك بين الشرق والغرب .

لماذا شيدت الحصون ؟

ذلك العدد الكبير من القلاع الذى مازال ناهضاً إلى اليوم في بلاد العروبة يجعلنا نتساءل : لماذا شيد البيزنطيون والعرب والصليبيون هذا العدد الكبير من تلك الحصون ؟ أليس عملهم هذا مبالغة وإسرافاً في خطة إقامة الحصون وحشد الرجال فيها .

ربما كان من محض الصدف أن جاءت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧ م) إلى سورية في الوقت الذى بدأ فيه بناء الحصون يزهر في أوروبا ، ذلك العصر الذى أطلق عليه عصر القلاع ^(١) . صادف هذا عصر الإقطاع الذى اتسم ببناء الحصون ، فكان لكل إقطاعى قلعة يحمي نفسه فيها ومعه أتباعه وعتاده .

ولم تكن الحرب الصليبية إلا صورة متقدمة للإقطاع الأوروبى في الشرق الوسيط . وقد يمكن إضاح ذلك الموقف في صورة بيّنة ، إذا أدركنا وضع المملكة اللاتينية في الشرق .

عبرت جيوش الحملة الصليبية الأولى جبال طوروس متجهة إلى سورية في عام ١٠٩٧ م ، وغادرت آخر العملات الأرض المقدسة في أغسطس عام ١٢٩١ م أى بعد سقوط عكا بنحو ثلاثة أشهر ^(٢) . وكانت المملكة اللاتينية التى عمل الصليبيون كل مافى وسعهم للحفاظ عليها بنجاح متفاوت قرابة مائتى عام ذاب شكل شاذ . فقد كان طبيعة موقع دولتهم مكشوفاً تجعلهم معرضين للهجوم عليها . وكانت أراضيهم الممتدة من الجنوب إلى الشمال تضم مملكة بيت المقدس ، وإمارة طرابلس وإمارة

(١) شيد برج لندن في إنجلترا في عام ١٠٨٧ م ، وأضيفت إليه مباني كثيرة وهو من أهم معالم لندن حتى اليوم .

(٢) قاوت جزيرة أرواد الحصينة التى تقع أمام طرطوسة إلى عام ١٣٠٣ م .

أنطاكية وكونتية الرها التي استقرت في حدود خمسين سنة يبلغ امتدادها من أربعمائة إلى خمسمائة من الأميال تقريباً . وإذا استثنينا البقعة الشمالية منها لوجدناها أرضاً ضيقة خطيرة يتراوح عرضها بين الخمسين والسبعين من الأميال ، فقد كان امتدادها إمارة طرابلس عرضاً مثلاً لا يتجاوز ٢٥ ميلاً فقط ، وعلى الجانب الصحراوي والطويل لتلك الدولة الساحلية بقيت المدينتان الإسلاميتان والقويتان ، حلب ودمشق تناهضان تلك الدولة الدخيلة ، ولم يستطع الصليبيون مطلقاً الاستيلاء عليهما ، فكأنما طوال مدة الغزو الصليبي بمثابة سيف مصلت عليها باستمرار كشوكة في جانبها . بل وأكثر من ذلك كأننا قاعدتين هامتين ، كان المسلمون يوجهون منها هجباتهم العنيفة المتكررة كلما رغبوا وكما سمعت ظروفهم الحربية .

ولاشك أن الموقف الحربي العام كان يتغير تماماً لو أن الصليبيين — بدلاً من اندفاعهم في اتجاه الساحل وإلى الجنوب نحو بيت المقدس والاستيلاء عليه — كانوا اتجهوا نحو الشرق واستولوا على حلب ، ثم دمشق مفتاح سورية في ذلك الحين . ولكن ضاعت الفرصة منهم ، وكان من المحقق في النهاية أن يخسر الفرنج البلاد المقدسة كلها . فمن المحتمل إذا كانوا استولوا على حلب ودمشق لاطمأن الصليبيون إلى بقاء دولتهم . فان الصحراء تكون حداً منيعاً يفصل دولتهم عن هجمات المسلمين من الشرق . بيد أن ذلك لم يكن شيئاً يسيراً . . فان هناك ما يقرب من ثلاثمائة ميل في الصحراء القاحلة التي حرمتها الطبيعة من الماء ، لا يستطيع جيش في مصر الوسيط أن يقوم فيها بعمليات القتال بنجاح إلا إذا أنجز خطته بسرعة .

وفضلاً عن ذلك كان وجود الصليبيين يهدف إلى تجزئة الدول الإسلامية ، وفصل بعضها عن بعض ، لكي لا تستطيع التعاون في إطار من الوحدة . . لذلك لم تتعاون القاهرة ، أو توحدها خططها مع بغداد في سبيل القضاء على دولة الفرنج ، إذ ليست هناك طرق مواصلات جديدة وقصيرة تيسر لها ذلك التعاون ، فضلاً عن الاختلاف الذهبي في البلدين حينذاك .

وأدرك الصليبيون خطأ حطتهم ، ولكن جاء ذلك متأخراً جداً وضاعت عبثاً جهودهم حينما فشلوا مراراً في الاستيلاء على دمشق . وعلى ذلك كان يواجه الصليبيون باستمرار عدو قوى بمجنوده السريعة الحركة ، عدو يسدد صرבותه في أي وقت

شاء ضد الجانب المهدد من ناحية تلك المعاقل الحصينة ، ولذلك كان من الضروري أن يلجأ الصليبيون إلى سياسة بناء تلك السلسلة المنظمة من الحصون النينة .

وكانت ثمة سبب حيوى آخر اضطر الصليبيون من أجله إلى بناء الحصون والقلاع ، وهو حاجتهم الملحة إلى المزيد من المحاربين . وقد فطنوا إلى تلك الحاجة عندما أرادوا تعديل خططهم للاستيلاء على خط حلب — دمشق والاندفاع إلى قلب البلاد الإسلامية . والمعروف أن الجيش الصليبي الذى خرج من نيقية فى عام ١٠٩٧ كان عرمرماً إذا نظرنا إليه بمقاييس الجيوش المعاصرة إذ ذاك . ولكن معركة « دوريليوم »^(١) وقسوة الطبيعة فى الأناضول أثناء الصيف كبدت الصليبيين خسائر كبيرة ، فنقص تعداد قواتهم . وعلاوة على ذلك فإن قواتهم التى حاصرت أنطاكية قدرت بحوالى الخمسين ألفاً ، يضاف إلى هذا أنه فى الوقت الذى كادت فيه الحملة تحقق أهدافها بدأ قادتها الواحد بعد الآخر ينسلخ عن الحملة برجاله ، وكان كل منهم يهدف إلى إنشاء إقطاعيات جديدة فى الدولة التى كسبوها . فمثلاً استقر بلدوين (فلاندرز) فى الشمال الشرقى إلى الرها . وفصل بوهيموند ورجاله من أهل جزيرة صقلية البقاء فى منطقة أنطاكية ، فلم يصل من القوات الصليبية جميعها إلى بيت المقدس (عام ١٠٩٩ م) سوى ١٥٠٠ فارس وقرابة ١٥٠٠ مشاة ، ثم أنه بعد سقوط القدس تحقق الهدف الأول من الحملة الصليبية عاد معظم الفرنج وأتباعهم إلى أوروبا ، بينما بقى « جودفرى دى يون » لإدارة مملكة بيت المقدس ومعه ثلاثمائة من الفرسان . وليس يخاف أنه قد يستطيع عدد من الفرسان القلائل على كسب المعارك لكنهم لا يستطيعون بعد ذلك الحفاظ على دولهم . ولذلك كانت حاجة الصليبيين إلى الإمداد بالرجال ملحة باستمرار فى أوروبا . ولم يكن هذا الإمداد دائماً كافياً لأنه كان صغير العدد ومحدوداً .

صحيح أن الحملة الصليبية الأولى كانت ضخمة العدد ، ولربما كان فى استطاعتها أن تغير مجرى تاريخ الدولة اللاتينية ، لولا ما صادفها من الحن فى آسيا الصغرى فى عام ١١٠١ ، ثم جاءت فى أعقابها الحملة الصليبية الثانية — التى قدر عدد رجالها

(١) نشبت هذه المعركة بالقرب من المدينة المعروفة بهذا الاسم بين السلاجقة والصليبيين وذلك فى عام ١٠٩٧ وهزم فيها السلاجقة .

بحوالى ١٥٠٠٠ من المحاربين . وفي ذات الوقت اتسعت رقعة البلاد المحتلة ، وتنافس عدد رجال الحاميات « نسيباً » ... ولذلك أمام هذا النقص الشديد في الرجال عالج الصليبيون الموقف الحربي بالالتجاء إلى بناء الدفاعات الحصينة للاستعاضة بها عن جنود الحاميات . ولا يخفى أن الجنب الأيسر للصليبيين كان معرضاً دائماً لهجمات المسلمين المفاجئة .

لذلك لم يكن هناك سوى علاج واحد للملافة المتعاقب .. ألا وهو مضاعفة الجهود لبناء القلاع والحصون كما ذكرنا .

ولكى يحتفظ الصليبيون بمواطنيهم على شاطئ لبنان ، كان عليهم أن يحتفظوا بسيادتهم على البحر لكي يبقوا على الصلات التي تربطهم بمواطنيهم في الغرب ، ولكي يحفظوا بمعطفهم فيواصلون إمدادهم بالرجال . فلقد أحس الصليبيون أنهم يستطيعون الحفاظ بممتلكاتهم إذا استمر سيل المساعدات بالعتاد والرجال يأتيهم من أوروبا ، وإذا ظل أعداؤهم متفرقي السككة لا يوحدهم زعيم قوى . فكان عليهم إقامة التحصينات الساحلية . لكي يؤمنوا العمليات البحرية . ولذا فإنهم أقاموا عند مداخل الموانئ البحرية في عكة وصور وصيدا ، وجبيل ومدن بحرية أخرى أبراجاً عند الحاجز الذي يقاوم اللوج ، أو على جزر صغيرة بالقرب من مداخل هذه الموانئ . فشيّدوا سلسلة من الأبراج التي كانوا يستخدمونها للمراقبة على طول الشاطئ اللبناني لكي يؤمنوا الاتصال بينها . وقد بقي من هذه الأبراج إلى يومنا هذا تسعة أبرزها برج جبيل القائم على هضبة جنوبي شرق البلدة . وجميع هذه الأبراج تقوم على مواقع أبراج أو قلاع قديمة . ومواد البناء التي بنيت بها كانت أنقاض تلك الأبراج . وكذلك شيّد الصليبيون قلاعاً تحيط بالموانئ من جهة البر .

أما في طرابلس وصور وعسقلان حيث كانت المقاومة عنيفة شديدة وطويلة الأمد ، فإن الصليبيون بدأوا ببناء قلاع كهذه في زمن مبكر . وكانت هذه القلاع التي بنوها من العوامل التي عجلت في إخضاع المدن والاستيلاء عليها . وبقيت قلاع الصليبيين في جبيل هي أول ما يسترعى انتباه السائح في تلك المدينة^(١) وجميع هذه القلاع

والحصون الصليبية في لبنان يعود زمن بنائها إلى القرن الثاني عشر ، وبعضها إلى القرن الثالث عشر (١) .

أما قلعة البحر في صيدا ، فإنها شيدت على جزيرة صغيرة عام ١٢٢٧/٢٨ م ، وكان يربطها بالمدينة جسر طوله ٨٥ ياردة لا يزال قسم منه قائماً إلى يومنا .

ولما أخذ الملك لويس التاسع يرمم حصونها وقلاعها استعمل مواد البناء ذاتها التي كان الرومان والفينيقيون قد استعملوها في بناء تحصينات المدينة . وفي الواقع أن أكثر الحصون والقلاع اللبنانية التي أقامها الصليبيون لم تكن سوى إصلاح أو إعادة بناء حصون وقلاع أقامها ، إما البيزنطيون أو الرومان أو ربما الفينيقيون أنفسهم . وهذه القلاع ذاتها رممها المماليك وأعادوا بناءها في عصر تال .

ذلك أن مواقعها الإستراتيجية الممتازة يجب أن تكون قد استرعت انتباه العسكريين قبل وصول الصليبيين بأزمة كثيرة . فإن الإدريسي الرحالة والجغرافي المغربي (ت ١١٦٦) لما زار هذه البلاد قبل الفترة التي نحن بصدد ذكر ثلاث قلاع بين صيدا وبيروت وستة عشرة قلعة بين بيروت واللاذقية (٢) .

مراحل بناء القلاع الصليبية

تجلى أمام القرنج الذين استقروا في البلاد عقب سقوط القدس حقيقة واضحة هامة . فإنه بالرغم عن استطاعتهم إنشاء مملكة لاتينية ، كان لزاماً عليهم أن يحافظوا عليها . ومن ثم بدأت سياسة الإنشاء والبناء بنشاط على أيام حكم الملك بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٧) ، تلك السياسة التي استمرت نحو مائتي سنة .

المرحلة الأولى :

كان حصن صافيتا — الحصن الأبيض (٣) أول المعاقل التي شيدها الصليبيون

(١) فليب حتى : لبنان في التاريخ ص ٣٥٦ - ٣٥٨ .

(٢) الإدريسي : طبعة جلد ميستر ، ص ١٦ - ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ .

(٣) Safet-Chastel Blanc

(١١٠٢ م .) ، ولذلك لأجل السيطرة على مخاضة نهر الأردن في أقصى الشمال من سورية^(١) ثم شيدوا قلعة تورون (Toron) عام ١١٠٧ م . التي تشرف على الطريق الموصلة بين صور على الساحل ودمشق . ثم قلعة الشقيف^(٢) أقوى الحصون السبعة التي شيدت لحراسة حركة الحج بين يافا وبيت القدس . وقلعة الحبس جلدق ذلك للمقل الكهف لمراقبة نهر اليرموك . وقلعة الشوبك^(٣) التي شيدت حول عام ١١١٥ جنوب البحر الميت لتهديد المواصلات الصحراوية بين مصر ودمشق . وقلعة سكاناليون (١١١٦ م) جنوب صور على الساحل . وأخيراً قلعة الجريبة^(٤) التي تشرف على شمال خليج العقبة في البحر الأحمر .

وفي أوائل القرن الثاني عشر احتل الصليبيون قلعة صهيون — البيزنطية الأصل — في جبل العلويين ، وكانت تستر المداخل الجنوبية الشرقية المؤدية إلى أنطاكية وجعلوا منها قلعة منيعة لما أضافوه إليها من الأبراج والأسوار والخنادق .

ولقد كانت قلاع الصليبيين في هذا الطور (أوائل القرن الثاني عشر) صغيرة البناء كقلعة بلفور^(٥) .

كان أهم ما يميز طابع القلاع في تلك المرحلة ، استخدام الحصن النورمانى المربع ، وبناء سور بسيط تدعمه الأبراج المربعة الموزعة على مسافات طويلة نسبياً وذات تنوءات واضحة . وفي هذه المرحلة أيضاً يمكن القول بأن الصليبيين استفادوا بما وجدوه في البلاد من القلاع البيزنطية^(٦) علاوة على ما نقلوه معهم من الغرب من

(١) يوجد قول آخر بأن أول قلعة يمكن تأريخها هي قلعة المكونت ريمون التي أقاموها على جبل الحاج عام ١١٠٤ م ، لكي تكون مقراً لرئاسة جيشه ، وذلك أثناء انهماكه في حصار طرابلس ، ومن المحتمل أن تكون قلاع أمراء الجليل في طبرية وتورون قد شيدت في نفس العصر .

Chastel Arnoul (٢)

Montreal (٣)

Ile de Graye (٤)

Belvoir (٥)

(٦) كانت الأسوار وأبراج السور من أهم ما تميزت به القلاع البيزنطية والتي اقتبسها الفرنج في حصونهم .

أساليب البناء الحربية . وكما رأينا فقد واكب وصول الصليبيين إلى فلسطين العصر الذى رأى فيه العرب الأبراج الأولى (Keeps) ، ولذلك فقد عرف الفرنج الاستفادة باستخدام الحصن النورمانى المربع إلى أبعد حد ، وليس هناك أدنى شك فى أن الصليبيين تأثروا بتقليد حصون البيزنطيين الذين كانوا أحياناً يشيدون فى قلاعهم (كما كان الحال فى نيقية ودارا) برجاً واحداً يمتاز بضخامته ومنعته عن الأبراج الأخرى . . وقد عاين الفرنج عدداً كافياً من القلاع فى بلادهم .

وتلك الأبراج القوية التى بدأ الصليبيون يشيدونها فى صافيتا^(١) وكرك مؤاب وصهيون وجبله وعكار وفى أماكن أخرى ، كانت تتألف غالباً من طابقتين وشرفة (terrace) تعتبر من المتانة التى لم يسبقها مثيل فى العمارة العسكرية إلى القرن السابع عشر . فقد كانوا يشيدون تلك الحصون فى بادىء الأمر فى أسهل مكان دفاعى فى القلعة ، ولكنهم بعد التجربة وجدوا أن خير مكان يشيد فيه هذا البرج هو المكان الذى يتطلب الدفاع فيه أقوى أعمال التحصين . وبناء على هذا الاعتبار وضعت أبراج مربعة منيعة فى أقوى أعمال الدفاع فى المملكة اللاتينية — وهى حصون صهيون (Saone) والصيبية والمباني القوية التى شيدت فيما بعد فى الكرك والمرقب والبرجان الكبيران فى قلعة الحاج فى أنسب الأماكن فى القلاع — أى أشد المناطق خطراً فى القلعة .

والبرج المربع يعتبر أهم السمات البارزة فى الصليبية الأولى ، وبالرغم عما يمتاز به من المتانة فله مساوئ خطيرة . وقد وضعت تلك العيوب فى حروب الحصار المتعاقبة فى الأرض المقدسة ، كان فى أول الأمر سلاحاً إيجابياً ، ولم يكن مبناه يسمح إلا للحماية محدودة العدد . ولم يكن باب البرج الوحيد (لأجل أسباب الأمن والوقاية) يسمح للعمامة بالانسحاب عندما تضطر الأحوال . ولقد قيل إن البرج يستطيع الدفاع عنه جندي واحد . وقد أشار ذلك لورنس^(٢) فقال إن اثنين فقط يستطيعان محاصرة البرج بنجاح . وذلك إذا وقف جندي واحد عند كل ناحية من ناحيتى الباب لمنع إنطلاق الجنود من الداخل . كما أن هناك مساوئ فنية أخرى تلازم كلا من البرج

Chastel Blanc (١)

(٢) المغامر البريطانى الذى اشتهر بأعماله فى شبه الجزيرة العربية خلال الحرب العالمية الأولى.

المربع وبرج السور المربع فهما معرضان من زواياها (أركانها) للغم . فضلاً عن أن شكلهما لا يسمحان لوقايتهما التامة بواسطة النيران الحاكمة .

وقد دعا الضعف المتوارث للحصن النورمانى والبرج المربع في السور ، في أواخر القرن الثانى عشر إلى التخلّى جزئياً عن الشكل المتبع وإلى إحداث تغييرات هامة في عمارة القلاع الصليبية ستوضح جلية في المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية :

وفي خلال حكم الملك بلدوين الثانى (١١١٨م — ١١٣١م) تم الإستيلاء على بانياس وتحصين قلعة الصليبية فوق جبل الشيخ (Hermon) الذى تكسيه الثلوج في الشتاء ، وذلك لخلق الطريق بين دمشق وأعلى نهر الأردن . ثم نشطت حركة البناء والتعمير بصورة واضحة على أيام فولك أوف أنجو (١١٣١ — ١١٤٤م) ففيما بين ١١٣٧ و ١١٤٢ شيدت حلقة قوية من القلاع في الجنوب الغربى من عسقلان تضم قلعة الحارس الأبيض ^(١) (تل الصفى) وابلين ^(٢) وبيت جيلين . والمعروف أن عسقلان هذه كانت آخر المرافق التى بقيت في قبضة المسلمين . وكان غرض « فولك » من تشييد تلك الحصون قفل الطريق من مصر إلى فلسطين .

وفي عام ١١٣٩ بدأ الفرنج يشيدون قلعة بوفورت ^(٣) (شقيف أرناول) المنيعة على أحد الجبال المشرفة على نهر اللبتانى وذلك ليعتكموا على أحد مخائنه الضيقة ، وبعد أربع سنوات شيد الصليبيون كرك مؤاب فيما بين ١١٤٠ — ١١٤٣ شرق البحر الميت وهى عتاز بموقعها العسكرى وتمعد نموذجاً طيباً في أسلوب التحصين ، وقد شيدها باين النابلسى رئيس سقاة الملك فولك . وفي تلك السنين تسلم فرسان طائفة الإسمبترارية حصن الفرسان (الأكراد) من الملك ^(٤) .

(١) Blanche Garde

(٢) شيد رجال الاسبتارية قلعة ابلين (بيتنا) عام ١١٤١م .

(٣) تبعد بوفورت (بلفورت) نحو ٢٤ ميلا من بيروت ، انتزعها السلطان الظاهر بيبرس من الصليبيين في ١٥ أبريل ١٢٦٨ (Beufort) .

(٤) Crak des Chevaliers

وينسب إلى قلاع هذه المرحلة قلعة بلقوار^(١) وتعرف باسم كوكب الهواء ، شيدها فولك عام ١١٤٠ في السنة التي شيدت فيه قلعة صفد في الجليل العلوى ، وقد بنيت على الأسلوب البيزنطى ، ويحيط بها سور خارجى يكاد يكون مربع الشكل تقريباً ، وتدعمه الأبراج ويقوم فى وسطها حصن عال كان يؤلف فى الواقع قلب الدفاع ، وقد جمع أسلوب البناء بين المثانة والمنعة .

ويعتبر انتقال واجب الدفاع عن حصن الأكراد (الفرسان) إلى طائفة الاسبتارية حدثاً هاماً وذلك من ناحية الترتيبات الدفاعية فى مملكة اللاتين وذلك فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر . ذلك لأن تصميم هندسة الحصون وبناءها كان قد بلغ مستوى رفيعاً من ناحية الضخامة ، بحيث لا يستطيع السيد الإقطاعى مهما كان غنياً أن يتكبد الإنفاق على البناء المطلوب . ولذلك انتقلت تدريجياً شئون الدفاع عن الأرض المقدسة إلى الطوائف العسكرية القادرة . ومن ثم وقع على عاتق الاسبتارية بناء حصن إيلين فى عام ١١٤١ م ، ثم عسقلان بعد الاستيلاء عليها عام ١١٥٣ م . وقلعة بلقوار التى تحكم أعالي نهر الأردن قبل عام ١١٦٨ ، وقلعة عكار فى لبنان الشمالى فى عام ١١٧٠ م ، وقلعة المرقب التى بين طرابلس واللاذقية فى عام ١١٨٦ م .

ولم يكن بناء قلعة المرقب الاسبتارية قد تم عندما انتهت معركة حطين فى عام ١١٨٧ ، ومن ثم حشدت جميع القوات التى أمكن الحصول عليها لمقاومة جيوش صلاح الدين عند طبرية ، وكانت نتيجة تلك الأعمال الحربية المتعاقبة أن نقص عدد رجال الحاميات فى القلاع .

وهكذا نرى أنه كان من عواقب نقص عدد الرجال فى القلاع ، أن ازداد عبء الدفاع أمام هجمات المقاتلين المسلمين ، ولدينا الكثير من أحداث الحصار الرائعة فى قلاع الكرك بعمّاب والشوبك (موتريال) وبوفور وصافيتا ، فقد استطاع رجالها مقاومة الحصار أكثر من عام ضد قوات تفوقهم عدداً وعدة .

ونلاحظ أن أكثر القلاع التى استولى عليها صلاح الدين ومنها كرك مؤاب ،

لم يستردّها الصليبيون مرة ثانية . ولكن عندما جاءت الحملة الصليبية الثالثة بامداد من الرجال (١١٨٩) عاد الأمل إلى اللاتين ، ونشطت حركة بناء القلاع ثانية .

أنه قبل حوالي ١١٧٠ م لم يشيد الفرنج أية أبراج مستديرة كبيرة . وبعد معركة حطين (١١٨٧) وباستثناء قليل ، كانت أهم حصونهم الكبرى تعتمد على الأبراج للمستديرة ذات التواء أو البروز الكبير — تلك الأبراج المستديرة التي تسمح بكية كبيرة من النيران الجانبية . وفي الوقت الذي حافظ فيه الصليبيون على طراز البرج القديم بدأوا يتخذون الطراز الممارى المستدير ، ومن ثم أخذ هذا يتطور إلى حسن متين يضم عدة أبراج متصلة ببعضها ، وسمح هذا الشكل — التطور الجديد — إلى زيادة سرعة حركة الجنود ومضاعفة نشاط هجومهم ، وقد أدى هذا التطور في الأسلوب البنائي إلى ظهور الحصن ذي الأسوار المتكررة المشتركة المركز وهو المعروف concentric fortification .

وأصل هذا الأسلوب في القلاع الصليبية التي لها نطاق مزدوج من الأسوار غير محقق ، وصحيح أن الإمبراطورية الشرقية قد استخدمت هذا النوع من الاستحكامات ذات الحصون للتداخلة في بزنطيم وغيرها ، كما استخدمها الخليفة المنصور عند بناء الأسوار المستديرة في تشييد بغداد في القرن الثامن ، وفي إنجلترا على أيام الرومان والسكسون عرفت بعض الاستحكامات التراية من هذا النوع (concentric earthworks) ، وما زالت مخلفات هذه الاستحكامات تشاهد إلى اليوم فوق الكتيبان الرملية الإنجليزية .

ومن الممكن أيضاً أن تكون القلعة ذات الحصون التداخلة قد تطورت من البرج الذي على شكل المحار (Shell-keep) ، وهو عبارة عن قلعة وحسن (Keep-fortress) شيد وسط فناء ، وقد أثبت هذا التخطيط في أوروبا أنه أحسن ما يستعاض به عن الحصن النورمانى المحدود المهمة ، ومن الحصن الذي على شكل المحار جاء سور الستارة الذي ضم مساحة أكبر عرفت باسم بيلي (Bailey) .

وعلى أية حال فهما اختلفت الآراء في منشأ هذا الطراز الممارى : أهو شرقي أو غربي فانه ازدهر على أيام الصليبيين ازدهاراً مدهشاً واضحاً . نراه أمامنا إلى

اليوم ظاهراً جداً في قلعي المرقب وحصن الأكراد ، وهو عنوان الفخامة والجمال في وقت واحد .

وقد واكبت هذه الثورة في التخطيط عدة تغيرات في طريقة البناء : منها استخدام الحجارة المنحوتة التي لا يتيسر بشلالم الحصار التغلب عليها لأنها لا تسلك بها ، وتطورت طريقة عمل المزاغل (فتحات السهام) وصارت تتجه منضية إلى الأسفل ، وبذلك تيسر الرمي إلى أسفل القلعة . ولم يقتصر عمل تلك الفتحات على الشرفة العليا أو الطوابق المرتفعة في الحصن ، بل عممت أيضاً في الطوابق المنخفضة إلى مستوى الأرض . وتطور أيضاً عمل المشربيات الحجرية (Machicolation) وذلك بينائهما من الحجارة بدلا من الحشب كما كان الحال في أوروبا ، وذلك لندرة الأحشاب في سورية . كما طرأ على مداخل القلاع وأبوابها أساليب خداعة لتضليل المهاجمين ، ولنضرب لذلك مثلا : فالحاصرون إذا أرادوا اقتحام مدخل حصن الأكراد .. كان عليهم أن يجتازوا ممراً مقبى ويدبرون ثلاث مرات وربما قابلهم بعد ذلك باباً شبيكياً من الحديد يمنهم عن اقتحام البوابة الكبرى .. وعليهم بعد ذلك أن يعملوا جادين لاجتياز أربعة أبواب أخرى أقيمت فوقها المشربيات الحجرية . ولأجل تيسير التحرك والعمل لرجال الحامية ، فقد لجأوا إلى استخدام عدد من الأبواب السرية والخفية (Postern gates) . وكانت تلك الأبواب يخفى أمرها في بعض الأحيان كما كان البيزنطيون في الغالب يخفون أبواب قلاعهم ، وذلك في المكان الذي تأخذ فيه ستارة السور في الانثناء بشكل زاوية قاعة ، وكانوا يختارون مواضعها بحيث أن جماعة الجند المهاجمة عندما تتخذ طريقها نحو الباب السرى تعرض يسرها أو أجانب دروعها للعدو .

الرحلة الثالثة :

وبعد انكماش مساحه الأراضي الصليبية في القرن الثالث عشر نتيجة لاستيلاء المسلمين على أراضي الأفرنج ، لم يشيد هؤلاء إلا القليل من القلاع الجديدة باستثناء قلعة مونتفورت^(١) أو القرنين (١١٢٧ - ١١٢٩ م) والتي شيدت في موقع جذب

ومنيح يشغلها مقر رئاسة الفرسان التيتون^(١) علاوة على أعمال التحصين الهامة التي شرع في إقامتها بعد عام ١٢٤٠ م في صافيتا شمال طبرية ، وفي قلعة بوفورت التي كان الأفرنج قد شيدوها من قبل ، ثم استولى عليها المسلمون واستعادها الصليبيون بعد ذلك . وانتقلت العناية إلى تحصين قلاع الساحل ، ذلك لأن المرافئ يستطيع المسلمون مهاجمتها ، ومنها يتمكن الفرنج مراقبة البحر ، ويسر كل هذا للفرنج التمسك بالسهول الضيقة المطلة على البحر ، ولذلك رأينا الملك ريتشارد يعيد تحصين يافا قبل رجوعه إلى وطنه في عام ١١٩٣ م ، ثم شيدت قلعة صور حوالي عام ١٢١٠ م ، وشيدت قلعة الحاج هي حصن الداوية المنيع عام ١٢١٨ ، كما بنيت قلعة الجزيرة في صيدا عام ١٢٢٨ . وقد نشطت على أيام الملك لويس (سنت لوى) حركة تحصين واسعة في المرافئ على طول امتداد الساحل ، وعلى أية حال فقد استمر البناؤون الفرنج يشيدون ويعمرون حتى الساعة الأخيرة ، ساعة فراقهم سورية .

هكذا رأينا في عرض عام حصون المملكة اللاتينية تزيد حصناً بعد حصن ، عقب سقوط بيت المقدس في قبضتهم حتى انتهاء دولتهم وسقوط عكا في يدي المسلمين (١٢٩١ م) .

ويمكن تقسيم تلك القلاع حسب الأهمية العسكرية (الوضع الحربى) وربما من الناحية الجغرافية أيضاً إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ — حصون ثأمين طريق الحج المؤدى إلى بيت المقدس من يافا أو عسقلان :

كان الفرض الظاهر من الحملة الصليبية الأولى هو تحرير الأماكن المقدسة من السلاجقة . فلما أحرز هذا الهدف عكف الصليبيون على تأمين حركة الحج من الساحل إلى كنيسة القيامة . ولأجل هذا أنشأوا سبعة معاقل رئيسية بين يافا وهي المحطة الأولى لانزال رجالهم النهابين إلى القدس ، وفي عام ١١١٨ م أناطوا برجال طائفة الداوية واجب حراسة الطريق المذكور . وكان أهم تلك المعاقل شقيف أرنول^(٢) . أما المعاقل الأخرى في هذه المجموعة فلم تكن على شيء كبير من الضخامة .

(١) تعرف أيضاً باسم قلعة ستاركنبورج Starkenburg

(٢) Chastel Arnoul أو بلفورت ، ويعرف عند العرب بقاعة الشقيف .

٣ — تحصين المدن الساحلية :

أول المدن الساحلية من الشمال هي أنطاكية . وكانت حصونها البيزنطية منيعة ، ولم يزد عليها الصليبيون شيئاً يذكر . ثم وجه هؤلاء عنايتهم لتحسين معظم المدن الساحلية الممتدة بين عسقلان في الجنوب إلى ساحل آسيا الصغرى في الشمال . وقد وجد الصليبيون في معظم تلك المرافئ والمدن حصوناً بيزنطية وأسواراً عربية كانت أقيمت قبل وصولهم إلى سورية (ماعدا يافا) ، وعلى ذلك كانت أعمال الصليبيين عبارة عن إمتداد أو توسع أو تحسين فحسب . وقد اجتنبوا إقامة القلعة في قلب المدينة كما كان يفعل العرب ، وهؤلاء أسوة بالرومان . وبدلاً عن ذلك كانوا يشيدونها في ركن من أركان المدينة أو بعيداً عنها مع إشرافها على الأرض المكشوفة ولذلك استقلت القلعة من ناحية تأديتها الواجب الدفاعي عن المدينة . ولا يخفى أنه كان للمدينة أسوارها وأبراجها الخاصة . فإذا سقطت المدينة في قبضة العدو استطاع رجال القلعة القيام بواجب الدفاع كوحدة مستقلة ، وفي الوقت نفسه تستطيع أن تستمد العون والمدد والنجدة من البلاد المجاورة ، ومن أمثال تلك القلاع :

حصون طرطوسة وجبلية وبيروت وقلعة البحر في صيدا^(١) ، وقلعة صور (والتي كان يمكن عزلها بغمر خندقها بجياه البحر) كانت تتمتع باستقلال مائل ، لأنه عندما تسقط المدينة (أي صور) في قبضة العدو كانت تستطيع القلعة الإتصال بواسطة البحر .

ولم يبق معظم أعمال تحصين المرافئ التي أقامتها الدولة اللاتينية لأسباب كثيرة . لقد مر عليها الكثير من أحداث القتال ، وكثيراً ما تبادلتها القوات المتحاربة منذ القرن الثالث عشر ، علاوة على ما قامت به معاول الهدم والتخريب ، ولم يبق اليوم من منشآت اللاتين الحربية في صور أو أسوار يافا (ذات الـ ٢٤ برج) التي هدمها السلطان بيبرس ، أو بيروت التي اشتهرت قلعتها بفسفسائها وقاعاتها الرخامية . تلك أنارت دهشة ولبيراند في القرن الثالث عشر^(٢) . ولم يبق شيء هام في قلعة طرابلس ، أما قلعة عكا فقد ضاع معظم معالم البناء الصليبية .

(١) Chateau de mer

(٢) Wilbrand of Oldenburg

أما قلعة البحر في صيداء فلا تزال تحتفظ بأطلالها الصليبية . كذلك الحال في برج جبلة ، على عكس ما تبقى في طرطوسة : وقلعة للمبدين ذات البرج المنيع وأسوار دفاعاتها المزدوجة ، وجزء من سور المدينة والكاتدرائية .

وفي نيفين^(١) (Nephin) حيث حول اللاتين قطعة جبيلة في البحر إلى جزيرة لم يبق منها سوى أكوام من الحجارة .

٣ — القلاع الاستراتيجية :

والنوع الثالث من الحصون (الاستحكامات) هي القلاع الاستراتيجية الكبيرة التي شيدت لحماية مدينة هامة أو موقع رئيسي ، ومعظم هذا النوع شيده الصليبيون في داخل سورية . وواجهها الرئيسي وقاية الجنب المهدد بالهجوم لدولتهم . وقد أقيمت هذه القلاع إما عند مخاضة رئيسية أو مضيق ، ولذلك كانت تبقى في مكان موحش منعزل تسوده العزلة من كل جانب . فإذا بقي هذا النوع إلى اليوم محتفظاً بأهم سماته فذلك راجع إلى طبيعة الموقع . ولم تفقد تلك القلاع أهميتها على مر السنين بل إنها حافظت عليها لان طبيعة الأرض لم تتغير .

وتعتبر تلك القلاع الاستراتيجية الكبرى خير تعبير للمهارة العسكرية الصليبية في القرون الوسطى ، وقد تمكن رجال الآثار والتاريخ بفضلها أن يدركوا كفاءة ومهارة بنائها وذوق مهندسيها . ونذكر من تلك القلاع :

حصن الأكراد ، المرقب ، كرك مؤاب ، صهيون ، بوفورت (الشقيف) ، قلعة الحاج أو أثليت ، الصبية جنوى جبل الشيخ . ونضيف إلى تلك إسمي قلعتين من ذات الطراز الكبير ، هاتورون^(٢) وصافيتا . وقد خرجهما المسلمون في زمن ما .

الموامل الجغرافية واختيار المواقع :

ولاشك أنه كان للموامل الجغرافية أثر كبير في اختيار مواقع تلك القلاع الكبيرة .

(١) احتفت هذه القلعة اليوم تحت مياه البحر ، وقامت بالقرب منها قرية آفة ، وهي جنوبي مدينة طرابلس .

(٢) Sarita — Ioron

وتوزيعها في سورية ، ونظرة فاحصة للخريطة للبقاع التي تقع بين صيدا وأنطاكية تبين لنا أهمية المواقع التي شيدت فوقها تلك القلاع . فسد جبال لبنان الشاهقة التي تناطح السحاب إلى ارتفاع قد يصل إلى عشرة آلاف قدم ، وجبل العلويين في شمال لبنان أيضاً (مع أنه أقل ارتفاعاً) يمثل التوحش والوعورة . اتخذت طائفة الاسماعيليه معاقلم النعمة ومنها قلعة القدموس ومصيف ، وقد كان هؤلاء في وقت ما من حلفاء الصليبيين .

ومن صيدا إلى أنطاكية كان من اللازم بناء القلاع عند الممرات القليلة العدد التي تصل بين داخلية البلاد والساحل . ولقد شيدت قلعة صهيون عند الطرف الشمالي لجبل العلويين والمرب في المكان الذي تتعرف فيه سلسلة الجبال عند الساحل مؤلفة أخدوداً ضيقاً بين الجبال والبحر . وحصن الأكراد (الفرسان) ، والقلعة البيضاء وعكار وغيرها . كل منها في مكان تتحكم فيه على ثغرة بين الطرف الجنوبي لجبل العلويين أول معاقل لبنان . ولم يكن من اللازم بناء قلعة كبيرة على طول امتداد سلسلة جبال لبنان ذاتها . وأمامنا قلعة بوفور عند نهاية تلك السلسلة الجبلية ، وهي تحرس الممر الذي يخرج منه نهر الليتاني في طريقه إلى البحر .

وفي فلسطين ، في الجنوب ، حيث تعتبر الدفاعات الطبيعية إلى حد ما قليلة وغير مؤثرة ، أمكن استعاضة هذا الضعف بتشييد قلاع كثيرة ، وسندكر بعضها . كان هناك خط دفاعي أولى للدفاع في الأرض الشبيهة بالصحراء في شرق نهر الأردن :

الصبيية في جنوب جبل الشيخ للتحكم وكشف أي تقدم يزد من جهة دمشق .
وقلعة كرك مؤاب في شرق البحر الميت وعلى مقربة منه .
والشوبك في صميم صحراء الأردن وشمال خليج العقبة .

أما خط الدفاع الثاني فكان يقع غرب نهر الأردن ويعتمد على قلعتي توروب وصافيتا ، ويشرف بالتتابع على الطرق المؤدية من أعلى الأردن إلى صيدا أو عكا ، وعلى قلعة بلفوار التي تشرف على المحاصرة الهامة جنوب طبرية .

وإلى جنوب وادي نهر الأردن والبحر الميت أنشئت عدة حصون منيعة جيدة : بينها شيدت قلعة الحاج على ساحل البحر حيث ترتطم المياه بأسوارها من ثلاثة أجناب .

الأساليب المعمارية للقلاع الصليبية

تلك القلاع التي مر ذكرها يختلف تخطيطها اختلافاً بيناً ، وهي تلخص أو توجز تاريخ وتطور الحصون من نهاية القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر إلى خاتمة القرن الثالث عشر .

كانت مشكلة بحث الأصول الهندسية والمعمارية لتلك القلاع موضوع دراسة رجال الآثار منذ القرن السابع عشر .. هل استمد الصليبيون أصولها من البيزنطيين أم من العرب أم أنهم جلبوها معهم من الغرب ؟ ، أم أن تلك القلاع كانت هندستها من وحى بنائهم عندما حلت قوات الصليبيين في الأراضي المقدسة ؟

إن رأى الغالب هو أن البنائين الصليبيين تلقوا فنونهم في العمارة العسكرية من الشرق ، وأن فن الحصون الأوربي استمد أسوله واستوحاها من التقدم الذى طرأ على القلاع في الشرق منذ البيزنطيين . يذكر ف . ١٠ . لورنس^(١) أن القلاع الصليبية في سورية صورة من النماذج الأوربية وأنها لم تستمد شيئاً مطلقاً من أساليب القلاع البيزنطية ، وقد اندفع في تأييد هذا الرأى وتسجيل نظريته بشق الشواهد ، ومنها ما قد يعتبر متفقاً مع الحقائق العلمية أو منساقاً مع العواطف !

والواقع ، أن الحق ربما يوجد بين الرأين ، فإن الصليبيين تعلموا كثيراً من الشرق ، كما جلبوا معهم بعض الأساليب من الغرب وخاصة في السنوات الأخيرة من دولتهم .

إن الحصون في الشرق العربى التى عرفت في القرن الحادى عشر امتدت أصولها وتطورها منذ العصور القديمة ، ولم يعرف عن الصليبيين أنهم استحدثوا جديداً فى منشآت الدفاع العسكرية ، مما لم يكن أمره معروفاً عند القدامى . ذلك لأن بعد سقوط رومه انتقلت تقاليد فن الحصون القديمة إلى البيزنطيين ، وتلك القلاع بقيت خير تعبير لما شيده جوستينيان من المباني العسكرية التى يقدر عددها تسعمائة مبنى . وقد اهتمدى رجال الآثار على كثير من تلك الأعمال . وفى عام ١٠٩٧ بدأ الصليبيون

(١) Lawrence, I.E., Crusader Castles, 2 vols., Golden Cockerel Press, 1936.

حديهم الطويل عبر آسيا الصغرى ودمروا نيقية ثم أخضعوها لهم ، وفي العام التالي استولوا على أنطاكية . وقد اشتملت المدينتان الحصينتان على خير النماذج المعمارية الحربية التي تأثر بأساليبها البناءون الصليبيون ، فعرفوا كيف يستفيدون منها ، واقتبسوا منها ما يتفق مع مطالبهم .

كانت قلاع الصليبيين مبان منيعة وكأنها وحدات دفاعية مستقلة ، وكانت تزود بقوة باتصال إحداها بالأخرى كحلقات في سلسلة أو شبكة محكمة من المواصلات مع المعاقل المجاورة .

ومن المحتمل أن الصليبيين تأثروا أثناء وجودهم في الشرق باستخدام الإشارات والحمام الزاجل كوسيلة من وسائل المواصلات . والمعروف أن العرب قد امتازوا في استخدام الحمام الزاجل ، كما مهر البيزنطيون في استعمال الإشارات . ومع ذلك أدرك الفرنج أين يشيدون قلاعهم وذلك لكي يجمعوا الاتصالات الداخلية بين معاقلهم أمراً ممكناً داخل مساحات شاسعة في ممتلكاتهم اللاتينية .

كان جنودهم على ذروات قلعة بوفور (الشقيف) (مثلاً) يتصلون بالإشارات مع جنود قلعة الصببية أي بانياس على سفوح جبل الشيخ . وكذلك مع قلعة تورون إلى الجنوب ، ومع حامية قلعة صيداء على بعد ١٠ ميلاً على الساحل . وكانت المواصلات في تورون ، (تبنيين) ممكنة مع « شاتونوف » ونهر الأردن . كما أنه كانت هناك شبكة مواصلات شبيهة تصل بين حصن الأكراد وعكا والقلعة الحمراء (قلعة يهور) وصافيتا (Chastel Blanc) والعريضة وطرطوسة في شمال ووسط المملكة اللاتينية . وفي أقصى الجنوب في كرك مؤاب حينما كان يحاصرها صلاح الدين عام ١١٨٣م كانت القلعة تتصل ليلاً بوساطة الشارات النارية عبر البحر الميت بقلعة بيت المقدس (برج داود) التي تبعد عنها مسافة تبلغ نحو خمسين ميلاً .

وتلك القلاع ومن كان فيها من رجال الحاميات القليلي العدد وهم مسلحون تسليحاً طيباً ^(١) احتوت على الإسطبلات السكافية وأبراج الحمام والطواحين ومخازن

(١) في معركة حطين (١١٨٧م) فقد حوالي ٢٣٠ من فرسان الطائفة الشجعان ، كما فقد الداوية عدداً كبيراً من رهبانهم في معركة عكا الختامية .

الصاد في الأقية داخل الأرض ، وكان يشرف عليها مسئول من قبل كبار الإقطاعيين الذين أسهموا في إرسال الحملات الصليبية الأولى إلى الشرق . ولكن فيما بعد تغير هذا الوضع حينما اتسع نطاق العمليات الحربية واستقرت مملكة اللاتين في الشرق ، وآل معظم الأمر في منتصف القرن الثاني عشر إلى رجال الطوائف الدينية وأهمها طائفة الإسبتارية وطائفة الداوية ، وهما الطائفتان اللتان وقع على عاتقهما مسؤولية المحافظة على القلاع الكبرى ، ثم آلت إليهم مسؤولية الدفاع عن المملكة اللاتينية بأسرها .

كذلك كان الحال في قلاع الصليبيين التي كانت على الحدود بين دولتهم والدولة الإسلامية . كان يحافظ عليها رجال تلك الطوائف المتمصة ، وكان من مهامهم تقرير الضرائب كما كان لهم سفنهم البحرية الخاصة وهيئاتهم الدبلوماسية التي تتكلم بالنيابة عنهم لدى ملوك أوروبا .

لقد وصل رجال طائفة الاسبتارية إلى الشرق قبل مجيء الصليبيين ، وكانوا معنولين عن تنظيم حركة الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس وتوفير نظم الراحة لهم ومعالجة المرضى منهم . وفي أوائل القرن الثاني عشر تطورت واجباتهم وضمّت الشؤون الحربية . أما الداوية فينسبون إلى الهيكل (هيكل للقدس) ، ونشأت طائفتهم في عام ١١١٨ م . وفي أعقاب العام المذكور أخذ يتقدم نفوذ الطائفتين بسرعة ونشاط ثم ساعد تطور الأحداث على إدماج الأعمال الحربية ضمن مسؤولياتهم ودخل في اختصاصاتهم إدارة معظم القلاع الهامة ، كما أصبحت لهم نظم خاصة وتقاليد متصلة بأعمالهم الروتينية والعسكرية .

التأثيرات البيزنطية الممارية

حين نبحث موضوع التأثيرات البيزنطية الممارية نجد أن حاجيات الصليبيين والبيزنطيين اختلفت إحداها عن الأخرى . فالبيزنطيون لم يكن ينقصهم الإمداد بالرجال (القوة البشرية) ، ونضيف على هذا أن تكتيكات وأسلحة الحصار خلال العصور الوسطى وقبل العهد الصليبي لم تكن تتطلب الأسوار اللينة البناء . وكان أهم ما اعتمدت عليه القلعة البيزنطية هو سور رفيع «نوعا» تحميه عدة أبراج مربعة ذات

بروز ضئيل . وتلك الأبراج موزعة على مسافات معينة ، بين كل منها والآخر ستارة غير مميكة من الحجارة ، الأمر الذى كان من أجله تبنى كواويل يعتمد عليها ممشى السور ، وفى بعض الأحيان كانت تبنى لها سلسلة من العقود الداخلية .

ومن أهم مميزات الحصون البيزنطية — الخندق الكبير الذى يحيط بالقلعة ، وكان يتقدمه أكمة من التراب تسمى متراساً (استحكام ترابى) . وعلى العموم فقد كانت الحصون البيزنطية تعتمد على عدد الرجال وعلى الأعمال الدفاعية الخارجية (الخندق والمتراس الترابى) ولا تبنى كثيراً بالموقع النسيج أو بمناة الأسوار أو بترتيب منسق لاستخدام النيران الساترة ^(١) .

استفاد الصليبيون كثيراً فى سورية من الخصائص والمميزات المعمارية لحصون البيزنطيين واتخذوها مرشداً لهم ، ولا سيما فيما شيدوه منها عندما وصلوا إلى الشرق . وقد استخدم الفرنج الأبراج فى حصونهم على الأسلوب البيزنطى ، وشيدوها فى بادية الأمر مربعة الشكل ، ولكن بدون التواء البارز الذى عرفه البيزنطيون . ونشاهد فى قلعة صهيون والحاج أن أبراج الستارة لم تكن متصلة بممشى السور . وفى قلعة صهيون نلاحظ أن جزءاً من ممشى السور كان يعتمد على الكواويل الخارجية . وقد استخدم الصليبيون بمهارة الخندق وعنوا به كثيراً ، ويشاهد هذا بوضوح فى قلعة صهيون وكرك مؤاب والصبية وبوفورت وقلعة الحاج .

ومن حصون الفرنج التى لم تطبق فيها الأصول المميزة للحصون البيزنطية ، تلك الحلقة من القلاع التى شيدها الملك فولك أوف آنجو بين عامى ١١٣٧ و ١١٤٢ م حول عسقلان ومى : إيلين وبيت جبيلن والحارس الأبيض . فقد كانت تلك عبارة عن قلاع مربعة ذات أبراج مربعة فى الأركان وبروزات (تواءات) مستطيلة ممتدة مع الستارة .

وكان فى قلعة من تلك القلاع برج منيع مستقل فى وسطها (Keep) ، وقد شيد

(١) تلك هى ميزات عامة ويمكن الرجوع إلى حصون قبرص البيزنطية وحصون الرصافة وغيرها مما شيده البيزنطيون فى سورية .

على نفس الطراز قلعة كوايات^(١) بالقرب من طرابلس وقلعة بانفوار (١١٤٠ م) .
وقد بنيت الأخيرة من الحجر المنحوت الأسود ، وهى حصن كبير مربع يحيط به
خندق حول ثلاثة من أجناعه ، أما الجانب الرابع فيطل على هوة سحيقة . ويمتد
أطول أضلاع القلعة نحو ٣٨٠ قدماً ، والأبراج المشيدة عند الأركان مربعة الشكل ،
وهناك برج واحد ذو تنوء كبير مقام فى وسط ثلاثة من ستائر القلعة .

ومن أهم المميزات التى توضح التخطيط الدفاعى هى الأبواب السرية الثلاثة
(Posterns) وكذلك المدخل الرئيسى للحصن ، وكان يضم هذا الأخير على الأقل
منحنيين يعملان معاً شكل زاوية قاعة^(٢) وكان يصل المرء إلى الباب الثانى بواسطة
ممر مقبى ، وتعتبر القلعة الحمراء القرية من طرطوسة نموذجاً بسيطاً لهذا النوع من
البناء ، ونجد هذا المدخل الذى على شكل مرفق يتكرر عدة مرات فى قلعة حلب .

واستمد الصليبيون من النماذج العربية عنصر المشرييات الحجرية
(Machicolation) ثم عملوا على تطويره . وهناك عدة أمثلة لهذه الظاهرة
المعمارية فى عدة مبان بالقرب من أنطاكية ترجع إلى مابين القرنين الرابع والسادس .
وقد نشأت هذه الظاهرة فى الشرق قبل ظهورها فى أوروبا^(٣) .

أما عن أسلوب البناء بالحجارة فقد اتبع الصليبيون الطراز الذى اتبع فى سورية
على أيام ما قبل البيزنطيين (الفينقيين وغيرهم) . ولا يخفى أن ندرة الخشب فى تلك
البلاد أجبرت الصليبيين على إستخدام العقود والقنوات بدلا من استخدام الخشب ،
ولذلك كان عدد الطوابق محدوداً ، ولم يتجاوز عددها فى القلاع اثنين أو ثلاثة ،
ويلاحظ أن الأبراج التى تتوسط القلاع الصليبية (Keeps) كانت أقل ارتفاعاً من
مشيلاتها التى شيدت فى الغرب .

(١) Coliat .

(٢) هذا الأسلوب المعمارى أخذه الغرب من الشرق وهو جعل المدخل الموصل
من باب القلعة إلى داخلها على شكل زاوية قاعة أو جعله منثنياً لكى لا يتمكن العدو الذى
يصل إلى الباب من أن يرى الفناء الداخلى أو أن يصوب سهامه إلى من فيه .

(٣) K.A.C. Creswell : A Short Account of Early Muslim Architecture, Pelican, 1958, pp. 121-122.

وليس يخاف أن العرب على أيام الصليبيين كانوا قد اتصلوا من قبل ببيزنطية منذ عدة قرون . وقد استفاد الاثنان وتبادلا المعرفة كما أنهما أضافا كثيراً إلى مبادئ فن هندسة الحصون القديمة .

ونحن هنا إذا تذكرنا أن في معظم عصور النضال الإسلامي الصليبي ، كان العرب يعتمدون على الهجوم وسرعة الحركة ، وكانوا يمتازون في الوقت ذاته بتفوق عددى كبير على خصومهم ، فانهم لم يعنوا كثيراً في تلك المدة بأعمال بناء الحصون الدفاعية ، ولأجل ذلك لم يقدر الباحثون تأثيرهم على العمارة اللاتينية حق قدره . وليس هناك أدنى شك أن الصليبيين استفادوا كثيراً من خبرة العرب في أساليب البناء العسكرية . وكان مما أدخلوه الى أسس جدرانهم ذلك التضخم في زيادة سمك جدران أسوار قلاعهم .

وفي صيداء وغيرها استخدم المسلمون العمدة الرخامية والجرايتية القديمة كدعامات لتقوية مباني الحصون ، وهو أسلوب معمارى شاع استعماله عند المسلمين أينما وجدوا تلك العمدة القديمة .

وموجز القول أن الصليبيين استفادوا دروساً شتى من البنائين البيزنطيين والعرب وأخذوا تلك الميزات الممارية التي راقوا لهم وأوصلوها إلى مستو رفيع . ثم أدخلوا عناصر جديدة ، وكان من أهمها حسن اختيار الموقع الذى تشيد عليه القلعة من ناحية الدفاع المثالى والعمل على أن ينسجم الموقع مع شكل الأرض وطبيعتها .

كان من نتائج الحروب الصليبية ، أن تطور نوعان رئيسيان من القلاع ، انتقلا فيما بعد من الشرق إلى أوروبا ، وكان لكل منهما ذات التخطيط والغرض فقد اشتملت كل قلعة على خطين للدفاع أو ثلاثة خطوط دفاعية ، الواحد في خاف . الآخر . وقد اختلف كل نوع عن الآخر من ناحية طبيعية الموقع الذى شيدت عليه القلعة . وبمعنى أوضح أن طبيعة الأرض ، هي التى كانت تتحكم في اختيار نوع التخطيط المنشود . فإذا كانت القلعة معرضة للهجوم من جميع الأجناب ، فإن القلعة في مثل هذه الحالة تتطلب الدفاع المتعادل عن كل جنب من أجناب القلعة ، ومن هنا نشأ ذلك النوع من القلاع الذى يشتمل على عدة خطوط أو ساحات دفاعية

متعاونة تعتمد على بعضها بعضاً داخل القلعة . وقد أطلق على هذا النوع « القلاع المتداخلة الحصون » (concentric) . وكان يحدث غالباً ، حيناً تشيد قلعة ما في أعلى ربوة أو موقع شبيه وينتظر أن يكون المجهوم على القلعة من جانب واحد فقط . حيث لاتوافر فيها إمكانية الدفاع عن كل الأجناب ، فقد كان من الطبيعي استخدام الأسلوب الذى يسمح بإقامة ساحات متعاونة داخل القلعة لأجل مواجهة المهاجمين فى الاتجاه الذى ينتظر أن يحصل المجهوم منه .

حصن الأكراد :

وخير نموذج لهذا النوع من القلاع فى سورية ، هو حصن الأكراد أو قلعة الحصن (١٢٠٥) التى تقع فى شمال شرق طرابلس . فإن موقعها فوق ربوة مرتفعة جعلها تشرف على جميع الأراضى المحيطة بها . لقد كانت القلعة موجودة قبل وصول فرسان يوحنا (Saint John) فأخذوا يشيدونها من جديد ، وجعلوا فيها ساحتين كبيرتين تتخللهما الأبراج المنيعه والأبواب الحصينة ، وكانت الساحة الداخلية أعلى من الساحة الخارجية ، ومشرفة عليها ، ومسيطرة على المهاجمين الذين قد ينجحون فى اقتحام السور الخارجى ، وبذلك يتهيأ للدفاعيين فرصة التحكم فى العدو فيقضون عليه أو يطردونه . وكان مدخل قلعة الحصن مهياً بطريقة حاذقة ، فإذا استطاع العدو مثلاً اقتحام البوابة الرئيسية للقلعة ، فلا بد أن يأخذ طريقه عبر ممر ضيق وطويل ، ثم تقابله عدة بوابات حصينة أخرى ينبغى التغلب عليها بعناء وتضحيات ، فإذا نجح قابله دهاليز أخرى ذات منحنيات ومرافق يتعذر التغلب عليها .

كل هذا ، قبل أن يصل المهاجمون إلى الساحة الداخلية للقلعة ، وهنا تكون قوات العدو ، قد حوصرت ، وأصبحت هدفاً محققاً وتحت رحمة المدافعين فوق الأبراج والأسوار والبوابات المسيطرة على الساحتين . ولم يكن فى هذا النوع من القلاع ، ذلك البرج المربع المنيع (keep) الذى كان يتوسط قلاع القرون السابقة والذى كان يحتوى فيه المدافعون للقتال حتى اللحظة الأخيرة ، فقد اضمحلت أهميته وأصبح لا يركن إليه . ولذلك لا نشاهده فى القلاع التى بنيت منذ عام ١٢٠٠ ، فقد أهمل إلى حد ما . ولقد أثبتت التجربة ، أن منعة القلاع قد أصبحت حينذاك فى

مسلسلة الأبراج القوية التي تدعم أسوار القلعة ، وكل برج منها يقوم فيه رجاله بالقتال والدفاع ضد المهاجمين ، وكأن كل جماعة في قلعة مستقلة .

أما النوع الثاني من القلاع ، وفيه يقوم الدفاع معتمداً على خطوط (ساحات) دفاعية منفصلة ضد الجانب الوحيد المعرض للهجوم ، كما هو الحال في قلعة صهيون (Saone) في سورية ، وقلعة جايار التي شيدها ريتشارد الأول ملك إنجلترا على نهر السين في عام ١٩٨١ بعد عودته من البلاد المقدسة^(١) .

أثر العمارة العربية على الغرب

وليس مما يشير الدهشة أن بعد عودة الفرسان من الحملة الصليبية الثالثة انعكست كثير من التطورات المعمارية العسكرية التي انطبعت في البلاد المقدسة على المباني الأوروبية ، وكان المماريون الأوربيون يبحثون عن أفضل الأساليب التي عرفت في سورية ، كالأبواب ذات المرافق الكثيرة وكالأبراج المستديرة في السور والحصون الوسطى التي استخدموها في مبانيهم ، كما أنه عني كثيراً بتأثير النيران الجانبية ، ثم عرفت السقاطات^(٢) والتاريس ، ومن ثم ساد في أوروبا القلاع المتداخلة الحصون ، على الأقل لمدة قرن ونصف ، وذلك بعد نجاحها في سورية على غيرها من الأساليب التي كانت قد استقرت فيها منذ أجيال سابقة .

ونلاحظ في ضوء استيلاء الحبرة الصليبية في أوروبا ، أن عدداً من البنائين في سورية الذين نهضوا بتشيد قلاع طائفة الداوية ، وقلعة مونتفورت (١٢٢٧-١٢٩ م) معقل فرسان التيتون ، لم يتأثروا بطراز القلاع الدائرية الدفاع ، وواصلوا بناء القلاع على الأسلوب البيزنطي حتى نهاية أيام الصليبيين في سورية (بالرغم من إدخالهم

(١) تشبه قلعة جايار في الواقع ثلاثة حصون يكاد يكون كل حصن مستقلاً عن الآخر فأقيم الحصن الأول على ربوة عالية ويحيط به الأسوار والأبراج ، ويفصله عن باقي القلعة خندق عميق ، ويقع خلفه حصن كبير يضم ساحتين كبيرتين يفصلهما خندق ، ويحيط بهما سور ضخم تغلله الأبراج المنيع ، وواحد من هذه الأبراج منيع جداً يقوم بوظيفة الخط الدفاعي الأخير للقلعة .

(٢) تعرف في البلاد الغربية باسم Portcullis

لبعض عوامل التقوية عليها) ، واستخدموا كذلك البرج المربع « القديم الاستعمال » . وقد نسب بعضهم ذلك الاتجاه (أى المحافظة على التقاليد القديمة) فى أسلوب بناء الحصون إلى المنافسة التى كانت تسود العلاقات بين طائفتى الداوية والاسبتارية ، والأخرون كان لهم الفضل فى اتخاذ الطراز الدائرى الدفاع والنهوض به . ومن الصعب اليوم أن نحكم على مدى ما كانت عليه قوة كثير من القلاع الداوية لأنها تعرضت لانتقام قاس أكثر مما لقيته قلاع الاسبتارية . ومن تلك القلاع : صفد والرمبة ، والقصر الأبيض (صافيتا) وطرطوسة ، وغيرها من القلاع الجنوبية التى تخربت .

وسنوضح العناصر (التدابير) المعمارية التى استخدمها العرب فى حصونهم قبل وصول الصليبيين إلى البلاد المقدسة ، ثم نقلها بعد ذلك إلى أوروبا . وفى طليعة هذه العناصر :

١ — المدخل ذو المرافق العديدة (لأنها على هيئة المرفق) والكلمة التى استخدمها المؤلفون العرب « عطف » . عرف المصريون القدامى هذا الأسلوب فى حصونهم . فنشاهد فى حصن شونة الزبيب فى الألف الثانية قبل الميلاد . والغرض منه أن نكبد العدو المهاجم للحصن أفدح الخسائر فى أثناء محاولته الانطلاق من باب الحصن ولا سيما فى أثناء الظلام أو عند انسحابه عقب فشل هجومه . ولم يستخدم الرومان أو البيزنطيون هذا الأسلوب فى حصونهم بل إنهم استخدموا المدخل المستقيم الذى يؤدى مباشرة إلى فناء الحصن . وفى القرن الثامن استخدم المهندس الذى أسهم فى بناء بغداد (٧٦٢ — ٧٦٥) المدخل ذى المرفق ، فكان استخداماً موفقاً . ومع ذلك فلم ينتشر هذا الأسلوب فى الشرق العربى ، حتى إذا وصلنا إلى القرن الثانى عشر تم استخدامه فى مباني الحصون بطريقة جيدة ، ولا سيما فى قلعة حلب العظيمة (أوائل القرن ١٣) التى عتاز مدخلها بخمسة منبثبات قائمة ومتتالية (١) .

(١) تراجم مادة « باب » للأستاذ كريستول فى دائرة المعارف (الطبعة الجديدة) وفى مقاله عن الحصون فى الإسلام قبل عام ١٢٥٠ فى :

ويلاحظ أن أول الأبواب التي اشتملت على هذا المرفق الثنائي في العمارة البيزنطية ، هو الباب الجنوبي في قلعة أنسكرا (أنقرة) التي شيدها الملك ميخائيل الثالث في عام ٨٥٩ م . ويرجح أن العباسيين نقلوا ذلك النظام المعماري من إقليم ما وراء النهر حيث شوهد هذا الأسلوب في قلعة جنيس التي بنيت قبل الإسلام^(١) . والجدير بالذكر أن الأمير قراقوش الذي نذبه السلطان صلاح الدين الأيوبي لبناء قلعة الجبل ، استخدم ذلك الأسلوب من المداخل في القلعة ثلاث مرات (١١٧٦ - ١١٨٤) ، وفي قلعة الجندي بسيناء التي شيدها هذا العاهل حوالي عام ١١٨٢ م . ثم انتقل الأسلوب إلى أقصى المغرب في قصبة وداية في رباط بمراكش^(٢) . كما أننا نلاحظ هذا الأسلوب الرائع في حصن الفرسان (الأكراد) في شمال سورية .

٢ — وهناك نظام معماري آخر ابتكره العرب وهو «السقاطة» التي انتقلت إلى الغرب باسم "Machicoli" وهي عبارة عن دروة من الحجارة أو الخشب ذات فتحات تبرز عن الحائط بوساطة كوابيل وتقام فوق أسوار الحصون أو في أعلا مداخلها ، ويستطيع الجنود من خلال الفتحات إلقاء المقذوفات أو السائل الحار على الرجال الذين يقتحمون القاعة وقد ظلت السقاطة مجهولة مدة طويلة في الغرب حتى استعارها الصليبيون في القرن الثاني عشر . وقد استخدمت السقاطات على نطاق واسع في شمال سورية قبل ذلك بفترة سنوات ، وأقدم نموذج منها تلك السقاطة الباقية في دار قيطنة وتاريخها منقوش عليها وهو ٥٥١ م . وتشاهد السقاطة أيضاً في قصر الحير الغربي (٧٢٩ م) الذي شيده الخليفة هشام ابن عبد الملك فوق أبواب القصر ، وكذلك تشاهد سقاطة أخرى في قصر الحيرة الشرقي (٧٣١ م) والجدير بالذكر أن أقدم السقاطات التي شيدت في أوروبا هي التي نشاهدها في قلاع جايار (١١٨٤) وشاتيلون (١١٨٦) ، ونوروتيش (١١٨٧) وونشستر (١١٩٣) . ويتضح من هذا أن الصليبيين نقلوا فكرة السقاطة عن المعماريين العرب بعد مرور عدة أعوام طويلة .

(١) Field and Probst : *Ars Islamica*, VI, pp. 158-166.

(٢) المرجع المذكور في هامش ١ ص ٧٤ للأستاذ كريستوفيل ، والمعروف أن نظام الأبواب ذات المرفق انتقل إلى كثير من القلاع الأندلسية في عصر المرابطين ولا سيما في غرناطة وأشبيلية وأبيلا .

وبالإضافة إلى هذين النظامين العربيين ، هناك أيضاً « المتراس » Portcullis ويمكن وصفه بأنه إطار من الخشب أو الحديد ، مدبب الأطراف من أسفله ، ينزلق عمودياً في حزين جانبيين في كتفي باب حصن أو قلعة ، ويثبت في الإطار شبكة معدنية صلبة ، يستطيع المدافعون قذف السهام من خلالها ، ويسدل المتراس عند محاولة العدو اقتحام القلعة وذلك بخفضه بوساطة حبال متينة أو سلاسل . ومن المحتمل أن يكون العرب قد اقتبسوه عن البيزنطيين في أثناء حصار حصن بابلين في مصر العتيقة^(١) ثم استخدموه فيما بعد في قصر الأخيضر ج . ع . م (٧٧٨ م) ومنذ ذلك الحين شاع استخدامه في الشرق قبل انتقاله إلى الغرب في أثناء الحملات الصليبية .

٤ — وهناك البربكان (Barbican) وهي كلمة عربية أو فارسية الأصل (بربخان) ، تطلق على البرج الكبير الذى يبنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته المقامة فوق الحندق المحيط بالحصن . وقد انتقل هذا النظام المعمارى إلى أهل الأندلس ولا سيما في عهد المرابطين بشمال أفريقيا .

٥ — والمقرنص (Squinch) نظام معمارى استخدمه العرب ونشأه في كثير من العمار الإسلامية وهي ذات طبقات مصفوفة أعلا بعضها ببراعة فنية ولا يقصد بها الزخرفة بل أنها ركن مهم في الهندسة المعمارية ولا سيما في بناء القباب ، وهي غالباً كروية محمولة على قواعد مربعة الشكل . ففي الفراغ الناشئ مادة من انتقال السطح المربع إلى مسطح دائرى . وكان كل صف من هذه الدلايات يوضع فوق بعضها وكل صف يبرز من الذى في أسفله حتى يلتقى الصف الأعلى بصف القبة . واستخدمت المقرنصات أيضاً في المآذن أسفل دورات المؤذن وذلك لإيجاد البروز الذى يتحرك فيه المؤذن ، فهي تقوم بعمل المسكوايل التي نشأها في أسفل الشرفات لملها . والمعروف أن الفاطميين كانوا أول من استخدموا الدلايات في مباني القاهرة . وقد انتقل استخدام المقرنصات إلى أوروبا بوساطة الصليبيين .

Joy, Sidney : Babylon of Egypt. Journal of British Archaeological Assoc., 3rd serie, vol. I, p. 70.

(١)

إعتبارات متصلة بالقلاع الصليبية :

وهنا وقد انتهينا من عرض مميزات بعض القلاع الرائعة ، وألمعنا بأنظمتها ، أفلا نتساءل كيف سقطت بعض تلك الحصون الصليبية أو كيف أجبرت على الاستسلام .
الواقع أنه لا يوجد جواب واحد لذلك السؤال . إذ أن هناك عدة عوامل كانت تؤثر على سقوط القلاع الكبرى . وكان يجتمع منها عاملان أو أكثر كسبب هدم لسقوط القلعة ، ويمكن بحث كل من تلك العوامل على حدة .

نقص قوة الرجال (١) :

كان النقص المزمع للقوة البشرية الصليبية دون شك العامل الرئيس لسقوط قلاع كثيرة في قبضة المسلمين ، وانضرب لذلك بعض الأمثلة :

وجد المسلمون في حصار قلعة صهيون النينة عام ١١٨٨ م أن قسماً كبيراً من السور النيع في القلعة لا يدافع عنه أحد من رجال الحامية . وكان ذلك ما حدث في قلعة توروب (تبنين) التي قاومت سبعة أيام فقط . وقد لاقت قلعة حصن الفرسان (الأكراد) نفس المصير ولا سيما بعد ما تخلى رجال التركمان عن مساعدة الفرسان ، فاضطر فرسان الاستبارية وحدهم إلى الدفاع عن الحصن حتى أجبروا على التسليم .

عقيلة القلاع :

أوجدت القلاع الكبرى عند الصليبيين عقيلة دفاعية ، وفرضت جهداً نفسياً عليهم . وقد كان هؤلاء دواماً في انتظار ما يجلبه المهاجمون من مفاجآت أو ما سوف يعلونه عليهم . وبمباراة أخرى كانوا في حالة يقظة مستمرة ورقابة وانتظار وإنصات وخوف . . إلخ . فحشاً عندهم الضجر والدعر والانهيار والتبرم والملل . وتلك كلها أعداء عنيدة للجنود تعرضهم لانهيار معنوى شامل ، ولا سيما إذا تواردت الإشاعات بأخبار الهجوم ، أو أبناء الحصار . وفي بعض الأحوال كان يتسرب المسلمون من الأبواب السرية الخلفية ويفاجئون رجال القلعة ثم يفرون مسرعين بعد الانهساء من غارتهم ، في حين يعمل رجال اللغم (اللغامون) تحت الأبراج

(١) يعبر عنها بعبارة Lack of manpower

الكبرى والأسوار دون كلل أو ملل ، ويدمرون قسماً هاماً من القلعة ويشهلون على المهاجمين التسرب أو المباغلة . فما بالك إذا انضبت المياه داخل القلعة وتفتش الأمراض . وبينما هم في محيط تلك الكوارث والمتاعب تصل الأنباء إلى حامية القلعة بأن العدو قد أباد نجدة كانت آتية لخلاصهم . . وهكذا كانت معنويات الحامية تنضال . . وتتفشى بين أفرادها الدعوة إلى التسليم . وتفسر لنا أمثال تلك المواقف لماذا سالت أنطاكية المنية عام ١٢٦٨ م بعد حصار لم يدم أكثر من خمسة أيام .

المجاعة :

كان أهم عناصر حروب الحصار حرمان رجال الحصن من المؤونة والطعام والماء ، ولكن هذا السلاح لم يتأثر به الصليبيون . ذلك لأن رجال الحصن لم يكن عددهم ضخماً يحتاج إلى مقادير كبيرة من الميرة . ومع ذلك فقد احتوت القلاع الكبيرة على مخازن تحت الأرض تحتوى على مقادير وفيرة من الحاجيات الضرورية . فكانت في قلعة المرقب مثلاً من المؤنة التى تكفى رجاله للمقاومة خمس سنوات من الحصار المريب ، وكان فى حصن الفرسان (الأكراد) طاحون للقمح وكانت مخازن الزيت والحبوب كبيرة . . وتلك لا زالت إلى اليوم موضع دهشة الباحثين . وكانت فى صهاريج ومخازن قلعة صهيون ما يكفى حامية كبيرة مدة حصار طويلة .

وفى بعض الأحيان كان يبدو شبح المجاعة مخيفاً مزعجاً . وتتحدث المراجع التاريخية عن دفاع « رينودى ساجيت » وحاميته الباسلة عن قلعة الشقيف (Beaufort) ، وانهاء هذا الاستبسال بالتسليم لصالح الدين (١١٨٨/٨٩) بعد ما تحمله رجالها من الحرمان ، وقد مر هذا الخطر بحامية قلعة بلفوار (بيت جبرين) التى قاومت الحصار ١٨ شهراً . كما فتكت الجماعة برجال كرك مؤاب بعد معركة حطين — وحامية حصن مونتريال ، وقلعة صافيتا (١١٨٨ م) .

د. عبد الرحمن زكى

ملحق

ثبت بالقلاع الإسلامية والصليبية

في الشرق الأوسط العربي

حوالى ١٠٠ م	حصن بابلون بمصر
نهاية القرن الثالث	حصن الأزرق
٥٢٧-٥٦٥ م	قلعة أنطاكيا (بدأ تشييدها أنتيجونوس وسلوكوس)
٥٢٩	قصور الحلابات (بدأ تشييده كرا كلا ٢١٣ م)
القرن السادس	حلبية (زنوبيا على نهر الفرات)
» »	ساموساتا (قلعة الطين على الفرات)
القرن السابع	مرعش (أعاد الخليفة معاوية بناءه)
» »	الحديث (أعاد الخليفة المهدي بناءه) ومماه الحمديّة
» »	جبلة (على البحر المتوسط بالقرب من اللاذقية)
٧٠٣-٧٠٢	المصيصة (بدأ تشييد القلعة عبد الملك بن مروان)
٧٢٤	المتقبة (شيده الخليفة عمر بن عبد العزيز)
٧٢٨-٧٢٩	قصر الحير (شيده هشام بن عبد الملك)
٧٢٨-٧٢٩	قلعة الرصافة (شيدها هشام بن عبد الملك)
٧٥٦	ملطية (أعاد تشييدها الخليفة المنصور)
٧٥٧	منصور (شيدها المنصور بن جعوانة بن الحارث)
٧٨٠	زبطرة (بالقرب من قلعة منصور أعاد بناءها الخليفة المنصور)
٧٨٢	أدنة (شيدها هارون الرشيد)
٧٨٧-٧٨٨	طرسوس
٧٩٦	عين زربة (Anazarbus)
٧٩٩-٨٠٠	الهارونية (شيدها هارون الرشيد)
القرن التاسع	برزية

قبل القرن العاشر	جعب (دوسرة)
قبل القرن العاشر	حران
القرن العاشر	حلب
القرن العاشر	المرية
القرن العاشر	مصيف (قادموس بالقرب منها)
القرن العاشر	عكا
القرن العاشر	حمص
القرن العاشر	يهر (القلعة الحمراء)
٩٥٩	حارم
٩٦٣-٩٦٨	بغراس (Pagrae)
حوالى ١٠٠٠	عكار
حوالى ١٠٠٠	شيرز
القرن الحادى عشر	المهلبه
القرن الحادى عشر	الكهف (شمال بانياس)
القرن الحادى عشر	قادموس (١١٣٤ ق)
١٠٤٥ أو ١٠٦٧	دمشق (الأمير أئسز) أو خلفه
١٠٦٢	المرقب (مرجط) — بدأ تشييدها رشيد الدين الإسماعيلي
حوالى ١١٠٠	المضيق (أباميا)
حوالى ١١٠٠	بانياس (حبيبة أونغرود)
١١٠٢	صافيتا
ح ١١٠٣	طرابلس (سان جيل)
١١٠٤	جبله (جيبيل)
١١٠٣ أو ١١٠٧	تورون (تيرون)
١١١٠	حبيس جلدق (شرق الأردن)
١١١٠-١١٢٠	حصن الأكراد (الفرسان) على أسس سابقة
١١١٥	الشوبك (كراك موتريال) شرق نهر الأردن

ح ١١١٦	فرعون (الجرايه) بخاليج العقبة
١١١٦	سكانديون
١١٢٠ — ١١١٩	صهيون (صلاح الدين)
١١٤٤ — ١١٣١	إيلين (يينا)
١١٤٤ — ١١٣١	بيت جيلين
١١٤٢ — ١١٣٧	جارد بلانش (تل الصافي)
١١٤٠ — ١١٣٩	بلفورت (شاستل أرنول) أو شقيف أرنول
١١٤٠	صفد
١١٤٠	بلفوار (كوكب الهواء)
١١٤٣ — ١٩٤٢	كرك مؤاب (شرق نهر الأردن)
١١٥٢ — ١١٤٩	غزة (على البحر المتوسط)
١١٤٩	عريضة
١١٥٣	عسقلان (على البحر المتوسط)
١٢٠٧ — ١١٧٦	قلعة الجبل بالقاهرة (صلاح الدين)
١١٧٨	شاستلية (ن . الأردن الأعلى)
ح ١١٨٣	طرطوسة
١١٨٤	عجلون (الربض شرق نهر الأردن)
١١٨٧	صدر (صلاح الدين بسيناء)
القرن ١٢	داروم (دير البلح) — الملك بلدوين الأول
القرن ١٢	إنفة (نفين)
١٢٠٣ — ١٢٠٢	بصرى (سورية)
١٢١٥ — ١٢٠٨	قلعة النجم
١٢١٠	قلعة صور (على البحر المتوسط)
١٢١١	قلعة جبل طابور (الملك المعادل)
١٢١٨ — ١٢١٧	عثليت (الحاج في شمال فلسطين)
حوالى ١٢١٨	قيصارية
١٢٢٧ — ١٢٢٩	جدين (مونفرتس — ستار كنبرج)

١٢٢٨—١٢٢٧

صيداء (ساجيت)

١٢٤٠

جزيرة الروضة بالقاهرة

القرن ١٣

قلعة بيت المقدس

١٤٧٧

قلعة قايتباى بالإسكندرية

١٤٧٩

قلعة قايتباى برشيد

١٥١٦

العقبة (السلطان الغورى)

١٥١٦

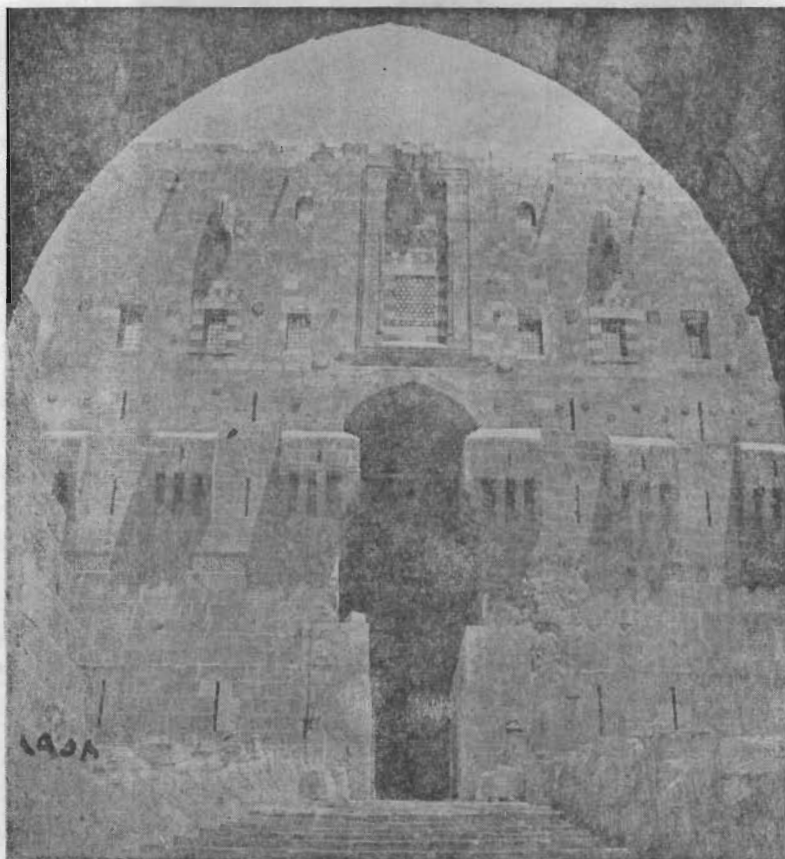
نخل (السلطان الغورى بسيناء)

١٥٦٠

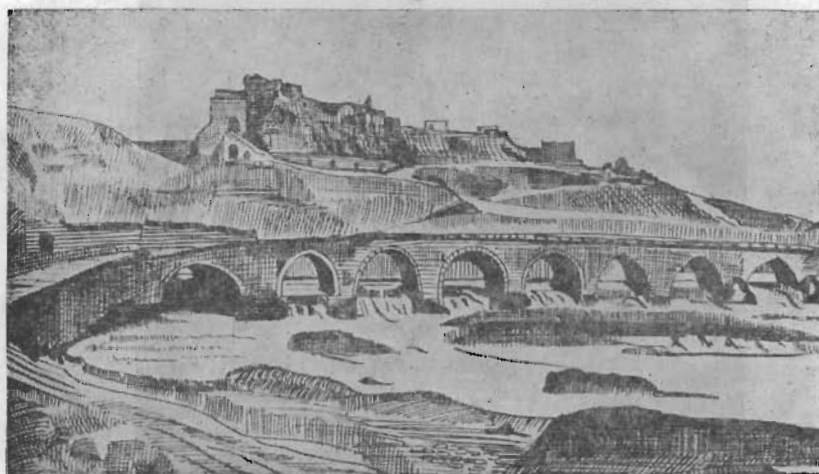
العريش

١٥٦٠ ح

الطور

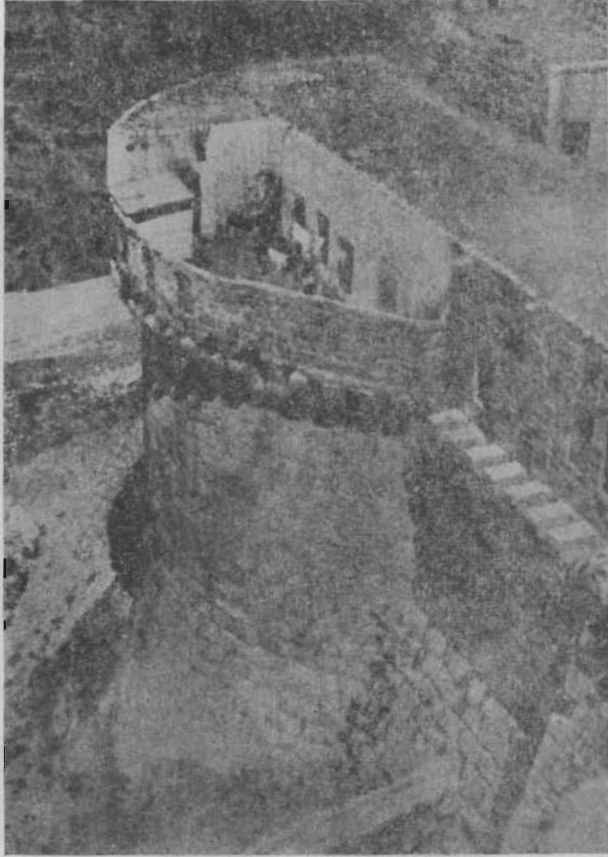


مدخل قلعة حلب العربية بسورية



قلعة شيزر العربية المطلة على نهر العاصي بسورية

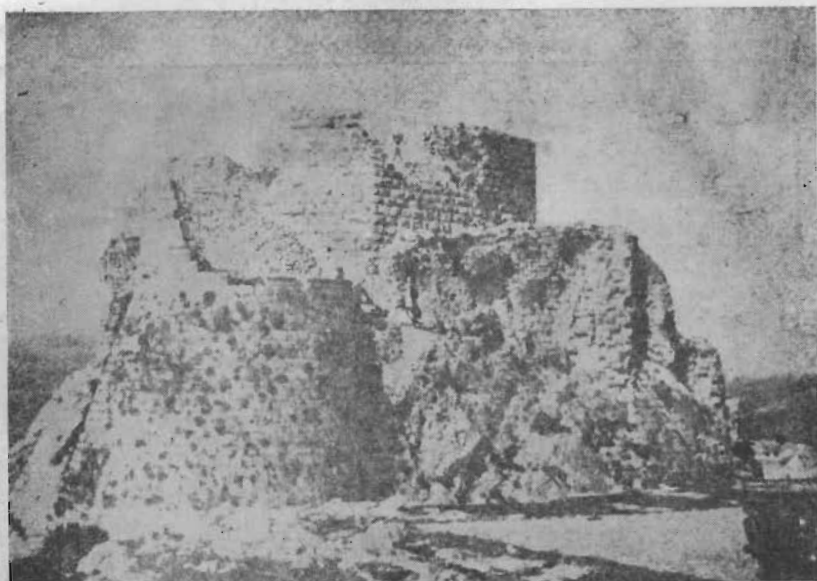
ن.الملك (١٩٥٨) رفقت شيفدا، فدية



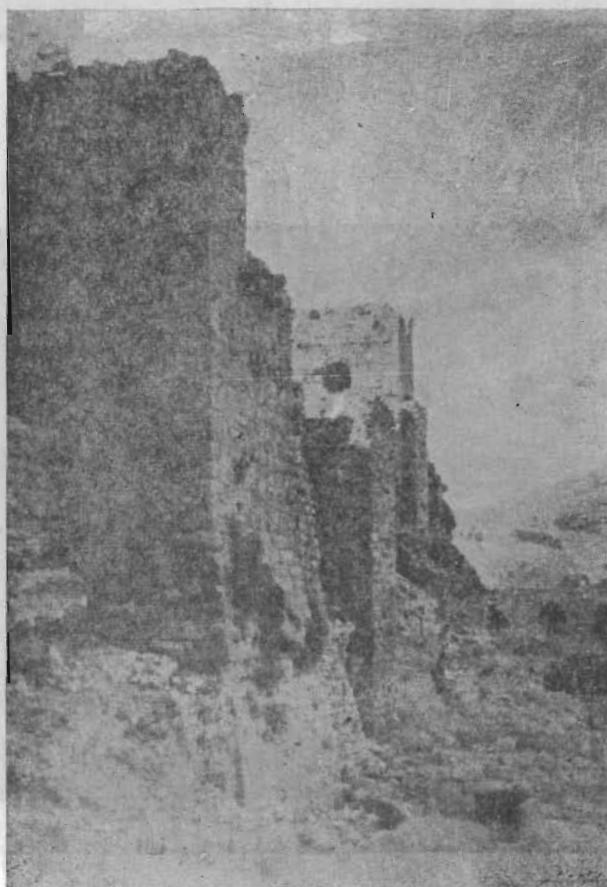
قلعة حصن الأكراد : برج مطل على السهل بسورية



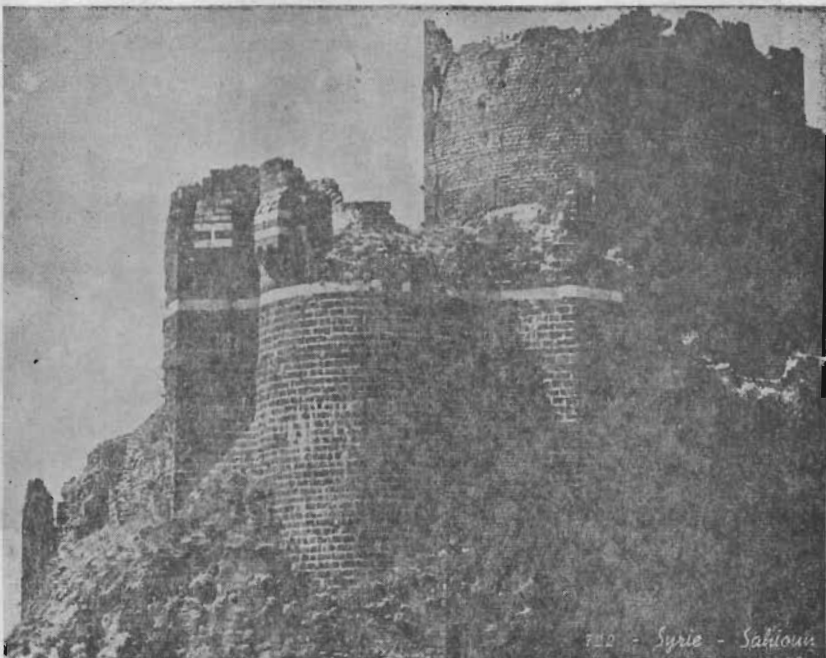
قلعة الشقيف شقيف (أرنول) بـلبنان



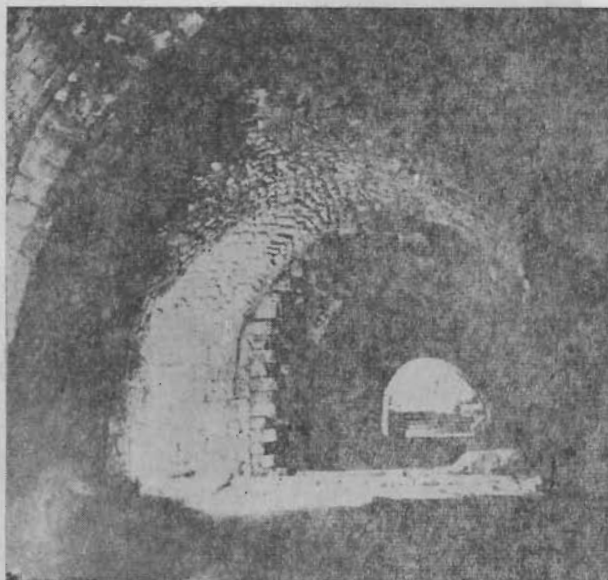
قاعة الشقيف بلبنان



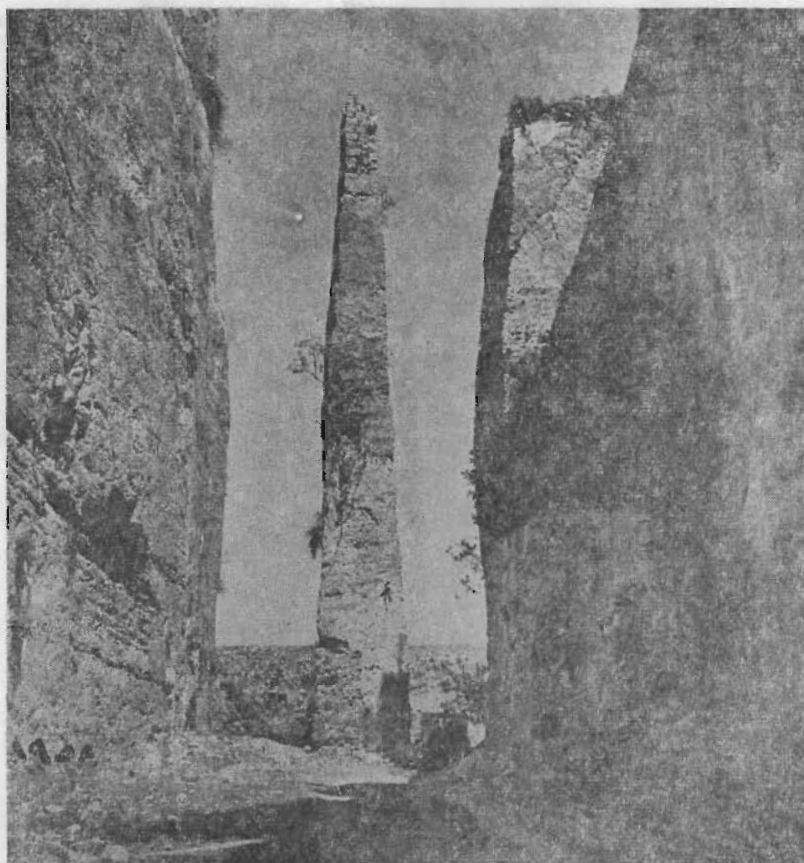
قلعة السرك بشرق الأردن



قلعة صهيون (صلاح الدين) في سورية



قلعة جبيل : أقيمة الحصن بانيان



قلعة صهيون (صلاح الدين) في سورية